سياج العداوة الحاجز

"ونقض (يسوعُ) في جسده حائطَ السياج الحاجز"

انفصل الناس، في زمن العهد القديم وزمن تجسّد الربّ يسوع، إلى نوعَين بل صفَّين من البشر: اليهود شعب الله أصحاب المواعيد الإلهيّة من جهة، ومن جهة ثانية الوثنيّين "الذين لا رجاء لهم" ولا يؤمنون بالله. لم يكن الخلاف عنصريّاً قوميّاً بقدر ما كان قبل كلّ شيء دينيّاً. فاليهود يعترفون بقرابات دمويّة مع بعض "الأمم"، لكن الفصل قائم على أسس أوّلاً خلقيّة ومسلكيّة وإيمانيّة واسختولوجيّة.

طال زمن الحرب والصراع بين شعب الله وبين الأمم المعادية له. وإن كانت العلاقة بين هذين الصنفَين والصفَّين من البشر متأرجحةً من حيث شدّة العداوة أو التقبّل والانفتاح، وبالعموم كانت متأزّمة جدّاً، ووصلت لحدود الحرب الدمويّة ومنع الزيجات المختلطة لا بل حتّى الكلام. فالشعب في العهد القديم كان غالباً مهدّداً وجوديّاً وسياسيّاً، ولطالما استُعبِدَ في مصر وبابل وكان عليه أن يحارب كثيراً ليحافظ على وجوده. فالأمم المتشامخة التي كانت تعبد آلهة غير حقيقيّة لا بل شهواتها، تحارب وتقاوم الربَّ الحيَّ في شعبه.

تكرّرت الحالات التي وقع فيها الشعب المؤمن في غواية رغبات والمسلكيّات الإباحيّة للأمم الوثنيّة. وانزلق الشعب مرّات إلى العبادة الوثنيّة بضعف من الإيمان وبضغط من الأمم التي تشاء أن تفرض عبادتها حتّى على الهيكل! لذلك شاءت الشريعة وبقساوة أن ينسلخ المؤمنون عن الأمم الوثنيّة حتّى لا تناله عدوى وثنيّتها (تثنية ٢٧، ١- ٨). لم تظهر إمكانيّة جذب الأمم إلى الإيمان سهلةً. وحَلِمَ اليهودُ بيوم تحرير يدين اللهُ فيه كلَّ الأمم التي لم تعدْ إلى الإيمان، أو بيوم أخير سيعود فيه الجميع إلى الله (مز ٢٢). لكن في التاريخ فصلت بين اليهود والأمم عداوةٌ كبيرة سمّاها بولسُ الرسول جداراً وسياجاً حاجزاً بينهما. "سياج العداوة" كان تاريخاً من العوامل وأهمّها الدينيّة التي فصلت الإنسان عن الإنسان.

الخطيئة! هي أولى حجارة هذا "الحائط المتوسط". لقد انشطر الناس حول كلمة الله إلى أتقياء ومجدِّفين. الخطيئة دفعت آدم إلى اتّهام امرأته حواء، وهي دفعت قايين لقتل أخيه هابيل، وهي بَنَتْ "برجاً رأسه إلى السماء" (تك ١١، ٤) تبلبلت بعده ألسنةُ الناس وازدادت خلافاتُهم، ولم يعد التفاهمُ والتناغمُ يسودان على العلاقات البشريّة! وتكاثرت الأحقاد الدمويّة منذ عهد قايين وتباينت القلوب وفُقدت الوحدة الروحيّة. كرّر العهد القديم: "اخرجوا من وسطهم وتطهّروا"- من دنس الأعمال.

ولقد سمّى اليهود الأمم "كلاباً" (مرقس ٧، ٢٧) لعبادتهم اللاأخلاقيّة وإباحة كلّ ما لا يُستباح فيها؛ وذلك للتباين الكبير بين أخلاق هؤلاء المؤمنين وأخلاق الأمم الوثنيّة. في رسائل بولس الرسول هناك إشارات عديدة لمدى الفارق الكبير بين ما هو قديم وما هو جديد، قبل الإيمان وبعده، في الحياة الوثنيّة وبعدها في الحياة المسيحيّة. يسمّي بولس الرسول الأمم بـ "لا رجاء لهم" وبالتالي لا التزامات خلقيّة عندهم.

الشريعة أيضاً، صارت العلامة المميزة والحدّ الفاصل بين المؤمن (اليهودي آنذاك) وغير المؤمن الوثنيّ. وليست الحالات الخاطئة التي تفصلُ الأديان فيها بين الناس، إذ تحزّبهم الواحد ضدّ الآخر بدل أن تجمعهم! ولم تكن قليلة الحالات السيّئة التي حارب بها أتباع دين أتباعاً لدين آخر! لقد ملكت العداوة قلب البشر وسخّرتْ حتّى الدِّين لسلطتها! ازداد عنفوان هذه العداوات الدينيّة في التاريخ عندما اقترنت مع الانتماءات الإثنيّة وسواها... وراح الخطاب يصير دمويّاً بدل أن يكون خطاب محبّة وتكامل!

السياسة حين تلبسُ الدِّينَ أو الدِّينُ حين يُسَيَّسُ يصيران الجدارَ الحاجزَ الأخطر. فترى الناسَ، وكلّهم بشرٌ، يشتهون السّلام والوئام ولكنّهم يبنون الحاجز والمتناقضات التي تجعل المحبّة مستحيلةً. العائلة البشريّة تمزّقت جماعات جماعات بسبب من الخطيئة الفرديّة أو الجماعيّة.

صليب المسيح، الذي مدّ عليه جسده قرباناً، صار حجر الزاوية، على الصليب هدم الربّ يسوع حائط العداوة بين اليهود والأمم وصرخ بداية المزمور المسيحانيّ: "إلهي إلهي لماذا تركتني" ليعلن أنّه يطلب على الصليب " أن تعود إلى الربّ كلّ الأمم". لقد انشقّ حجاب الهيكل الذي يمنع الوثنيّين من الدخول يوم صلب يسوع!

لقد جاء يسوع ومات وقام لأجل الجنس البشريّ وليس لإثنيّة أو جغرافيّة أو زمن محدّد! لقد صُلب يسوع "من أجل جماعة كثيرة لغفران الخطايا" (متى ٢٦، ٢٨). وأطلق تلاميذه بعد القيامة يبشّرون في

أورشليم (اليهود) والسامرة (بدع يهودية) وجميع الأمم (العالم كلّه) (متى ٢٨، ١٩). "لا عبد ولا حرّ، لا ذكر ولا أنثى، لا يهوديّ ولا وثني" يصرخ بولس الرسول، الجميع واحد في المسيح (غل ٣، ٢٨).

حجر الزاوية هو الحجر الذي يصل بين جسمي جدارَين منفصلَين فيوحّدهما ويجعلهما بناءً واحداً ويستندان كلاهما إليه. حجر الزاوية هو يسوع الذي يجمع كلّ بناء إلى الآخر "فيجمع المتفرّقين إلى واحد".

لا "احتكاريّة" في الدِّين- المسيحيّ. المسيحيّة دين شامل عالميّ. يسوع وصلبه وقيامته هديّة للبشريّة وليس لقوميّة أو تاريخ أو مكان! الدِّين لا يستحقّ الانغلاق بل يطلب البشارة الحرّة. سفر الرؤيا يكلِّمنا عن الحلم المسيحيّ حيث الجنس البشريّ كلّه يستعيد أخيراً وحدته حول الحمل، وينفصل الناس فيما بينهم بحسب البرّ أو الشرّ، فيجتمع الناس من كلّ أمّة وكلّ لغة حول الحمل (رؤيا ٧، ٩-١٧).

الخطيئة الخلقيّة، والاحتكار الدينيّ - العنصريّة، كلّها تبني جدراناً تفصل البشر في صفوف متصارعة، صليب المسيح يمتدّ نحو السماء وباتّجاه الأفق ليشمل الجميع دون استثناء!

يسوع ليسَ رجاءَ المسيحيّين وحدهم، يسوع رجاءُ كلّ البشريّة. هذه كرازتنا، ليست منّا وليست لنا. ولكن الويل لنا إذا تعثَّرَ الناس بيسوع بسببنا! المسيحيّة دين شموليّ لكنّه دين يطلب مسيحيّين رسلاً لهم القدرة على أمرَين، أوّلاً فهمه وثانياً نقله، أي عيشه والبشارة به! المسيحيّ إنسان مرسَلٌ ليس إلى بني أمّته أو دينه أو أيّ انتماء حصريّ آخر. المسيحيّ مرسَلٌ حجرَ زاوية في بناء جسد الربّ يسوع الواحد، يصل بين متفرّقين ليبني منهما جسماً جديداً واحداً. جعلَ يسوع الاثنَين (اليهود والأمم) واحداً ونقض في جسده (عندما صلب عن الجنس البشريّ كلّه) حائط السياج الحاجز أي العداوة (الدينيّة والإثنيّة والطبقيّة...) "وصالَح الكلّ في جسد واحد مع الله في الصليب بقتله العداوة في نفسه... ليوصلنا جميعاً إلى الآب في روح واحدٍ".

لنلقي نظرة فاحصة على إيماننا المسيحيّ، هل هو طاهر من الخطايا والأنانيّة؟ هل هو منفتح أم احتكاريّ، وكأنّه بالاسم يأتي التبرير؟ هل نحن حجر موحِّد في الزاوية أم جدار فاصل من العداوة؟ جدران العداوة الحاجز والفاصلة كثيرة، وهي وهمٌ غاشّ يقتل شهوة الإنسان الحقيقيّة أي المحبّة، ليطعمه سموم الحقد تحت انتماءات تقتل الحبّ والإنسان لتحافظ على جدرانها! المسيحيّ رسالة حبّ ووحدة كسيّده يبشِّر بزمن يسقط فيه جدار العداوة ويسكن جميع البشر أورشليم الجديدة، آمين.